الكاتب المصرى

رجب ١٣٦٦ — يونيو ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٦ — عدد ٢١

ملاحظات

ما زال الأدباء الفرنسيون يجادل بعضهم بعضاً ، حول موضوع يراه بعضهم خطيراً ، ويراه أكثرهم لا خطر له ، وهو التزام الأديب حين ينشئ أدبه ، واحتماله تبعة ما يكتب بأوسع معانى هذه الكلمة ، كلمة التبعة ، واتصاله حين يكتب بحقائق الحياة الواقعة التى تحيط به .

وقد عرضت هذا الموضوع عرضاً مفصلا فى هذا المكان نفسه من « الكاتب المصرى » فى أول شهر أغسطس الماضى . وكنت أظن أنها خصومة قد انقضت أو توشك أن تنقضى ، ولكنها فيما يظهر ما تزال قائمة ، وما يزال الكتاب الفرنسيون يبدئون فيها ويعيدون . وصاحب هذا الرأى هو جان بول سارتر أديب « الوجوديين » الفرنسيين فى هذه الأيام ؛ فهو الذى يكتب فى هذا الموضوع فيطيل ، وهو الذى لا يسأم التكرار فى هذه القضية ، حتى كأنه يتحدى خصومه ويريدهم على أن يجادلوه أو يعطوه أيديهم وينزلوا عند رأيه .

وقد استأنف الحديث فى هذه القضية فى مجلته « العصر الحديث » منذ أشهر ، فبدأ فى نشر دراسة مفصلة ، عنوانها « ما الأدب ؟ » وموضوعها الدقيق هو التزام الأديب حين يكتب ، واحتماله تبعة ما يكتب ، ووجوب أن يكون متصلا حين يكتب بما يحيط به من واقع الحياة .

وقد وصل إلىّ أكثر ما كتب فى هذه الدراسة الأخيرة ، وقد نشر فى عددى فبراير ومارس من هذا العام ، وما زالت لهذه الدراسة بقية نشرت فى عدد أبريل الذى لم يصل إلىّ الآن ، ولعلها تجاوزت هذا العدد إلى عدد

مايو أيضاً . وما كان بى أن أعود إلى هذا الحديث لولا أن الدراسة التى ينشرها جان بول سارتر ، قيمة حقا ، فمن النافع أن يلم بها قراء اللغة العربية ؛ ولولا أن فى هذه الدراسة القيمة ملاحظات مختلفة يتصل بعضها بالفن الخالص ويتصل بعضها بالأدب ويتصل بعضها بالفلسفة ، و يمس بعضها ما يكون بين الكاتب وقارئه من صلة ، ومن النافع كذلك أن يظهر قراء العربية على مثل هذه الملاحظات ؛ ولولا أن فى هذه الدراسة القيمة أيضاً أحكاماً يخيل إلىّ أنها أرسلت إرسالا ، أو أنها نشأت عن التكلف والتحذق والحرص على تحدى الخصوم ، ومن النافع لقراء العربية أن يظهروا على بعض هذه الأحكام ، وأن يحذروا منها ومن أمثالها .

وقد قسم الكاتب دراسته ثلاثة أقسام ، الأول عنوانه : ماذا نكتب ؟ والثانى عنوانه : لماذا نكتب ؟ والثالث عنوانه : لمن نكتب ؟

وقد يكون من الطريف أن يرى القارئ كيف يبدأ جان بول سارتر دراسته عنيفاً متحدياً لخصومه ساخراً منهم غير حافل بهم وغير متردد فى أن يتهمهم بالعناد أو بالغباء . فهو يقول فى أول بحثه : « كتب إلىّ مغفل يقول : « إذا أردت أن تلتزم فما يمنعك أن تنضم إلى الحزب الشيوعى ؟ » وقال لى كاتب كبير التزم كثيراً ، وتحرر أكثر مما التزم ، ولكنه نسى التزامه وتحرره : «إن أسخف الفنانين أشدهم التزاماً ، وانظر إلى المصورين السوفييتيين » وشكا ناقد شيخ فى هدوء قائلا : « إنك تريد أن تقتل الأدب ؛ فان ازدراء الأدب الرفيع يشيع وقحاً بغيضاً فى مجلتك » . ويصفنى صاحب عقل صغير بأنى قوى العقل ، وهو وصف يرادف عنده الاهانة كل الاهانة . وكاتب آخر يزحف متثاقلا من حرب إلى حرب ويثير اسمه ذكريات متهالكة عند الشيوخ يلومنى لأنى لا أحفل بالخلود ، وهو يعرف والحمد لله كثيراً من كرام الناس يعقدون به أعظم آمالهم . و يرى صحفى أمريكى ضئيل أن خطيئتى ، هى أنى لم أقرأ برجسون ولا فرويد . أما فلوبير الذى لم يلتزم فيظهر أنه يساورنى كأنه الندم . وبعض الماكزين يغمضون عيونهم قائلين : « والشعر ؟ والموسيقى ؟ والتصوير ؟ أتريد أن تلزمها هى أيضاً ؟ » وبعض أصحاب العقول المتهيئة للحرب يقولون : ما القصة ؟ أتريد الأدب الملتزم ؟ فهى إذن طريقة الاشتراكيين المحققين القدماء إلا أن يكون تجديداً عنيفاً للشعبية القديمة .

« ما أكثر الحماقات ! وما أسرع ما يقرأ الناس وما أقل ما يفهمون ! وما أكثر ما يحكمون قبل أن يفهموا ! فلنستأنف الحديث إذن ، وهو حديث لا يسلى أحداً ، ولكن يجب أن نثبت المسمار . »

على هذا النحو العنيف الساخر ، يبدأ جان بول سارتر دراسته . وهو يهاجم النقاد ؛ لأنهم يتحدثون دائماً عن الأدب دون أن يبينوا ما يريدون بهذه الكلمة . وهو يريد أن يعيد تحديد الأدب من جديد على طريقة ديكارت الذى يتخفف قبل كل شى من أثقال الأوهام والتقاليد ، وما اتفق الناس على تسميته بالحقائق المقررة . وأول هذه الأوهام التى يريد الكاتب أن يتخفف منها قبل أن يعرّف الأدب هو هذا الوهم الذى يدفع كثيراً من الناس إلى إيجاد صلة دقيقة لازمة بين الأدب والفنون الرفيعة . فبعض الأدباء يتحدثون عن الموسيقى والتصوير حين يذكرون أدبهم ، وبعض الموسيقيين والمصورين يذكرون الأدب حين يتحدثون عن موسيقاهم وتصويرهم . وما من شك فى أن هذه الفنون الرفيعة تتشابه من حيث إنها وسائل للتعبير عن إحساس الجمال والشعور به ، ووسائل أيضاً لإشراك غيرك معك فيما تحس من جمال بواسطة تعبيرك عن هذا الاحساس .

ولكن هذا شئ ، والاتصال الدقيق بين هذه الفنون بحيث تصدق عليها كلها أحكام دقيقة مشتركة شى آخر . فاذا قيل إن الأدب يجب ان يلتزم ، ويحتمل التبعات ويتصل بحقائق الحياة ، فليس معنى هذا أن الفنون الرفيعة الأخرى يجب أن تخضع لهذا الحكم ؛ لأن هذه الفنون الرفيعة الأخرى تغاير الأدب مغايرة جوهرية . فالموسيقى قوامها الأصوات الخالصة ، والتصوير قوامه الألوان ، والأدب قوامه الألفاظ . وهذه المواد متغايرة فى جوهرها ، فيجب أن تتغاير فى آثارها وفيما تخضع له من الأحكام . فالأصوات التى تتألف منها الموسيقى ، والألوان التى تأتلف منها الصورة ، ليست علامات يراد بها شئ آخر غيرها ، و إنما هى أشياء قائمة بنفسها مستغنية بنفسها ، تأتلف فتدل على شئ ؛ أو بعبارة أصح : تأتلف فتنشئ شيئاً هو القطعة الموسيقية أو الصورة ، على حين أن الألفاظ فى نفسها ليست أشياء مستقلة ، و إنما هى علامات يدل بها على أشياء أخرى غيرها . والمصور حين ينشئ صورة بيت حقير لا يدل بصورته هذه على شى أكثر من البيت الحقير الذى عرضه ، وهو لا يوحى إليك بما قد يكون فى هذا

البيت الحقير من بؤس وضنك وحرمان وعذاب ؛ لأنه لم يرد إلى ذلك، و إنما أراد إلى أن ينشئ بيتاً حقيراً فأنشأه، على حين يدل الكاتب حين يصف هذا البيت الحقير على أكثر من البيت ، يدل على ما يحتويه هذا البيت من آلام وأحزان وحسرات ويأس ، وقد يبلغ بل هو يبلغ بك إلى أبعد من هذا ، فيثير فى نفسك عواطف الاشفاق والرحمة ، أو عواطف الغيظ والغضب . ويثير فى نفسك بعد ذلك الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى ، وقد يدفعك إلى محاولة الاصلاح دفعاً .

فالألفاظ إذن وسائل غايتها المعانى التى هى عواطف وأحكام وحقائق خارجية . وليس هناك أمل فى أن تطلب الألفاظ لنفسها أو يعنى بها الانسان من حيث هى ألفاظ ، إلا أن يكون مريضاً أو مجنوناً . و إذن فلا غرابة فى أن يطلب إلى الكاتب أشياء لا تطلب إلى المصور ولا إلى الموسيقى ؛ لأن فن الكاتب مغاير فى مادته وجوهره لفن المصور والموسيقى .

إلى أى حد تستقيم هذه الملاحظة أو يستقيم هذا الحكم المطلق الذى يقرره جان بول سارتر واثقاً به مطمئنا إليه ، مستعلياً به على خصومه ؟ أما أن بين الألفاظ التى يأتلف منها الأدب ، والأصوات والألوان التى يأتلف منها التصوير والموسيقى تغايراً فى المادة ، فشى ليس فيه شك ولا معنى للمراء فيه . و إنما الذى أشك فيه شكا كثيراً ، هو أن المصور حين يرسم البيت الحقير لا يزيد على أن يرسم بيتاً حقيراً ، ولا يزيد على أن يشعرك بأنه قد أتقن التصوير أو لم يتقنه . وأكبر الظن أن كثيراً من آيات المصورين لا تثير الاعجاب بالجمال وحده ، ولكنها تثير وراء هذا الاعجاب عواطف أخرى قد تغير من اتجاه الانسان فى حياته ، وقد تحوله عن طريق إلى طريق ، وقد تدفعه إلى محاولات عملية تغير من حياته ومن حياة الناس من حوله ، وأمر الموسيقى كأمر التصوير وغيره من الفنون الرفيعة المختلفة .

وكل ما يمكن أن يسلم للكاتب ، هو أن الأدب أصرح وأفصح وأوضح دلالة من الفنون الأخرى التى تعتمد على الرمز والايماء أكثر مما تعتمد على التعمق والاستقصاء الدقيق . فاذا استباح جان بول سارتر لنفسه أن يلزم الأدب ويحمله التبعات لأنه يعيش فى بيئة فيجب أن يصور هذه البيئة ويصلحها ويحتمل معها تبعاتها ، فقد يجوز أن نطالب المصورين والموسيقيين والمثالين بمثل ما نطالب به الأدباء من الالتزام واحتمال التبعات ، ويخيل إلىّ أنهم

لم ينتظروا أن نطالبهم بهذا الالتزام ؛ فالذين صوروا مشاهد الدين وأقاموا المساجد والكنائس والتماثيل التى تصور هذا الشخص أو ذاك وهذه الفكرة أو تلك ، مهما تكن شخصيتهم وعبقريتهم واستقلالهم ، قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها وأثروا فى هذه البيئة وفى البيئات الأخرى التى عاصرتها أو تبعتها ؛ فهم إذن ملتزمون مشاركون فى احتمال التبعات . وقد يكون الفرق عظيما هائلا بين تصريح الأدب ، وتلميح التصوير ، ولكن الشئ المحقق أن تأثير الفن فى إذكاء العواطف الدينية مثلا ، ليس أقل من تأثير الكلام .

وملاحظة أخرى : يخيل إلىّ أن جان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وهى التى تتصل بالشعر . فهو يريد أن يلزم الشعر كما يلزم النثر . وهو يتوسل إلى ذلك بنفس النهج الذى أعفى به الفنون الرفيعة الأخرى من الالتزام. وهو يعترف بأن الشعر يأتلف من الألفاظ التى يأتلف منها النثر . ولكنه يرى مصيباً أن نظر الشاعر إلى الألفاظ مخالف أشد المخالفة لنظر الناثر إليها . فالألفاظ عند الناثر وسائل لا أكثر ، وهى عند الشاعر غايات يريد الكاتب بالفاظه أن يؤدى المعانى ، و يريد الشاعر أن يجد فى الألفاظ نفسها جمالا خاصا يستكشفه و يحققه بما يحدث بين هذه الألفاظ من الائتلاف .

ولا يستطيع جان بول سارتر أن يقصر عناية الشاعر على الألفاظ وما يكون من ائتلافها واختلافها ؛ فهناك معان وحقائق يحاول الشاعر أن يدل عليها بشعره ، ولكن هذه المعانى والحقائق ليست هى الأشياء التى يقصد إليها الشاعر مباشرة حين ينظم الشعر ، و إنما هو يجد هذه المعانى فى نفسه و يجد هذه الحقائق فى الخارج ، و يحاول أن يتخذ من الألفاظ رموزاً لها وصوراً تدل عليها من بعيد .

و إذن فلا حرج على الشاعر إذا لم يلتزم ، ولم يحتمل التبعات ، ولم يتصل بحقائق الحياة الواقعة الانسانية متأثراً بها مؤثراً فيها دافعاً إلى تغييرها إن احتاجت إلى التغيير ، و إلى صيانتها إن احتاجت إلى الصيانة والبقاء . وهذا حق فى جملته ، ولكن جان بول سارتر إنما يتحدث عن الشعر المعاصر عند بعض الأوربيين ، أو عن بعض المذاهب لبعض الشعراء المعاصرين . و أمامه مشكلة خطيرة لم يحلها ، بل لم يحاول أن يحلها ، بل لم يشر إليها من قريب أو بعيد ، وهى أن الانسانية المثقفة تكلمت شعراً قبل أن تتكلم نثراً ، وأدت بالشعر أغراض الحضارة كلها فى وقت من الأوقات . فقد كان الشعراء إذن

يلتزمون ويحتملون التبعات ، يتأثرون بالحياة الواقعة ، ويؤثرون فيها إلى حد أن كان الشعر بالقياس إلى الانسانية القديمة مصدراً خطيراً من مصادر التاريخ . ومن أسخف السخف أن يقال إن شعراء الالياذة والأودسة والشعراء الغنائيين والممثلين عند اليونان والرومان وفى العصر الحديث ، لم يكونوا يلتزمون ولم يكونوا يقصدون إلى المعانى فى أنفسها ، ولم يكونوا يتخذون الألفاظ وسائل إلى هذه المعانى .

وهناك حقيقة أدبية أخرى لم يلتفت إليها جان بول سارتر مريداً أو غير مريد ألا يلتفت إليها ، وهى أن الكتاب الناثرين قد يذهبون مذهب الشعراء ، فيعنون بالألفاظ فى أنفسها ويتخذونها غاية فنية ، ومظهراً من مظاهر الجمال ، ووسيلة إلى إثارة الاعجاب والبهجة اللذين يثيرهما الشعر . وسواء أكان هذا الفن النثرى مشروعاً كما يقول أصحاب القانون ، أم غير مشروع ، فانه موجود وموجود فى الآداب الكبرى كلها قديمها وحديثها . والباحث المنصف يجب عليه أن يأخذ الظواهر كما يجدها لا كما يريد أن تكون . ومن الظواهر الأدبية الواقعة المحققة أن الشعراء قد يقصدون إلى المعانى ويتخذون الألفاظ وسائل إليها ، وأن الكتاب قد يعنون بالألفاظ ويتخذونها فى أنفسها مادة للفن .

فاذا كان الالتزام واحتمال التبعات منوطاً باعتبار الألفاظ وسائل والمعانى غايات ، فأصحاب المعانى من الشعراء والكتاب سواء فى الالتزام ، وأصحاب الألفاظ من الشعراء والكتاب سواء فى التحرر من هذا الالتزام . والنتيجة البسيطة الواضحة التى ننتهى إليها ، هو أن كاتبنا الوجودى العظيم قد يكون موفقاً فى الفلسفة ، وإن كان الفلاسفة لا يعترفون له بهذا التوفيق ، ولكن المحقق أنه ليس موفقاً فى الأدب ، وأن أحكامه على الشعر والنثر والفنون الرفيعة حين تتصل بقضية الالتزام هذه تقوم على التحكم أكثر مما تقوم على أى شئ آخر .

وقد رأيت أن المصورين والمثالين والبنائين والموسيقيين يمكن ان يلتزموا ويحتملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات ، وأن الشعراء يمكن أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات قبل أن يوجد النثر ، وبعد أن وجد النثر ، وفى العصر الذى نعيش فيه ، وفى البيئة التى يعيش فيها جان بول سارتر نفسه .

فشعراء المقاومة الفرنسية قد التزموا بشعرهم وعرّضوا أنفسهم بهذا الشعر لأخطار هائلة ، فاحتملوا من التبعات المعنوية والمادية ما يعرفه جان بول سارتر حق المعرفة . ولست أدرى أيكون هؤلاء الشعراء منتمين إلى أحزابهم السياسية اليسارية لأنهم التزموا بشعرهم ففرض عليهم هذا الشعر أن يكونوا يساريين ، أم يكون هؤلاء الشعراء شعراء ملتزمين محتملين للتبعات لأنهم يساريون دفعتهم تبعات أحزابهم إلى أن يقولوا ما قالوا من الشعر . ولكنى حسن الظن بالانسانية ، وبالانسانية المثقفة الممتازة . وأنا أرى من أجل ذلك أن أراجون مثلا شيوعى ، لأن شعره دفعه إلى الشيوعية ، لا أنه شاعر لأن شيوعيته دفعته إلى الشعر أو فرضت عليه الشعر فرضاً .

فالفن الرفيع سواء أكان أدباً منثوراً أو منظوماً أم شيئاً آخر غير الأدب أوسع جوًّا من هذه الأغراض الضئيلة التى يختصم حولها الناس . فأراجون مثلا له شعره السياسى ، ولكن له أيضا شعره الخالص الذى لا يتصل بالسياسة من قريب أو بعيد ، ولا يمس الاصلاح الاجتماعى أو النظام السياسى . وهو ملتزم دائماً ملتزم حين يمس السياسة والاجتماع أمام الفن أولا وأمام الجماعة ثانياً ، وملتزم حين لا يمس السياسة ولا الاجتماع أمام الفن نفسه . وحسبك بالفن محاسباً عسيراً يعرف كيف يأخذ الفنانين بما يجب أن يحتملوا من التبعات .

وملاحظة أخرى لجان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وإنما وفق فيها لسخرية ظريفة طريفة لعلها أن تعفيه من تبعات الخطأ الذى تورط فيه ؛ فهو قد عرض للنقد والنقاد عرضاً رائعاً حقا ، ولكنه بعيد عن الانصاف أيضاً . وأكبر الظن أن مصدر جوره على النقاد أنهم لا يرفقون به ولا يرقون له ولا يعطفون عليه . فهو يزعم أن النقاد إنما يعنون بالموت أكثر مما يعنون بالحياة ، وبالأموات أكثر مما يعنون بالأحياء . وهو يصور لنا الناقد ضيقاً بامرأته التى تعنف به ، وبأبنائه الذين يثقلون عليه هارباً منهم إلى خزانة كتبه حيث يعاشر الموتى من الكتاب ، يفزع إلى معاشرتهم ويأنس بهذه المعاشرة ويستعين بها على كسب القوت حين ينقضى الشهر . وهذا فى نفسه كلام ظريف قد تكون له روعته وجماله ، ولكنه فى حقيقة الأمر كلام فارغ لا يدل على شئ . فسواء أراد جان بول سارتر أم لم يرد ، فقدماء الكتاب والشعراء والفلاسفة قد ماتت أجسامهم ، ولكن نثرهم وشعرهم وفلسفتهم لم تمت . والنقاد

يعيشون على هذه الآثار الخالدة الحية كما يعيش عليها جان بول سارتر نفسه . وهو فى هذه الدراسة نفسها يذكر كانت وهيجل وقد ماتا منذ زمن طويل ، ولكن فلسفتهما ما زالت حية تغذوه هو وتغذو غيره من الوجوديين ، كما تغذو النقاد الذين لا يحبهم جان بول سارتر ، لأنهم لا يحبونه ولا يهدون إليه الثناء . ومن أسخف السخف أن يقول قائل إن معاشرة أفلاطون وسيسيرون والجاحظ وفولتير ، إنما هى حياة مع الموتى و إقامة بين القبور . فإن هذا الكلام إن دل على شئ فإنما يدل على الحنق والغيظ والغرور . وأكبر الظن أن جان بول سارتر لم يرد به إلا إلى أن يغيظ النقاد و يحفظهم ويسخر منهم شفاء لبعض ما فى صدره من موجدة .

على أن من الحق أن جان بول سارتر قد أتيح له التوفيق حين عرض للقسم الثانى من دراسته ، وهو « لماذا نكتب » ، و إن كان يغلو فيما يقرر فى هذا القسم من الأحكام كما يغلو فى أكثر أحكامه . فهو مثلا لا يؤمن بأن الكاتب قد يكتب لنفسه لا للناس . ومن المحقق أن الكاتب يكتب للناس . ولكن من المحقق أيضاً أن كثيراً من الكتاب والشعراء يخدعون أنفسهم أو يخدعون عن أنفسهم فيعتقدون مخلصين أنهم لا يكتبون لأحد غير أنفسهم ، وأنهم لم يريدوا أن يذيعوا ما كتبوا ، و إنما أكرهوا على ذلك إكراهاً : أكرههم على ذلك أصدقاؤهم والمعجبون بهم ، واختلست منهم آثارهم اختلاساً ، فنشرت على غير رضًا منهم ، وأذيعت على غير رغبة منهم فى أن تذاع . ولست أدرى أين قرأت أن بول فاليرى أنشأ مقبرته البحرية ، وجعل يعيد النظر فيها وقتاً طويلا مغيراً ومبدلا ، يحذف من هنا ويضيف إلى هناك ، حتى زاره جاك ريفيير ، فاختطف القصيدة منه اختطافاً ، وكان هذا أول إذاعتها .

وما أشك فى أن الكتاب والشعراء والفنانين يخدعون أنفسهم ، ولكنى لا أشك فى أنهم كثيراً ما يخلصون فى هذا الخداع أو الانخداع . ومن الناس من لا يكره إطالة النظر فى المرآة ، ومنهم من لا يكره إطالة العكوف على نفسه والانحناء على أعماقها . فليس ما يمنع أن يكتب بعض الكتاب ليتخفف مما يثقله من الخواطر والآراء ، ثم يجد اللذة فى أن ينظر فيما كتب مصلحاً له يلتمس الكمال ، أو محدقاً فيه كما يحدق فى المرآة .

ولكن أكثر الكتاب والشعراء والفنانين ينتجون للناس قبل أن ينتجوا لأنفسهم ، أو قل مع جان بول سارتر إنهم ينتجون لأنفسهم وللناس . فالانتاج الأدبى عندهم مشاركة متصلة بين الكاتب والقارئ ، أو بين المنتج والمستهلك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد .

ولكن لماذا يكتب الكاتب ؟ ولماذا يقرأ القارئ ؟ وما عسى أن تكون القوانين التى تنظم الصلة بين القارئ والكاتب ، أو التى تصف هذه الصلة وصفاً دقيقاً وتصورها تصويراً صادقاً كما تصف قوانين العلم ظواهر الحياة ؟ يلاحظ جان بول سارتر أمرين يدفعان الكاتب إلى أن يكتب ، بل يدفعان الفنان إلى أن ينتج على اختلاف الفنون : أحدهما أن الفنان يريد أن يشعر نفسه بأنه كائن أساسى فى هذا العالم الذى يعيش فيه . فحقائق الحياة وحقائق الطبيعة موجودة سواء أعرفها الانسان أم لم يعرفها . ولكن وجودها إغراق فى النوم ، وإغراق فى النوم العميق السخيف ، إلى أن يظهر عليها الانسان فيعطيها معنى و يرسم لها أغراضاً وغايات . فالزهرة الجميلة زهرة ما لا قيمة لها ولا لجمالها إلا أن تعرف وتقوّم ويصور جمالها . والانسان هو الذى يستطيع أن يعرفها وأن يقوّمها وأن يخلع عليها هذا الجمال . وهو لا يخلع عليها جمالها الموضوعى الذى لا قيمة له فى نفسه ، و إنما يخلع عليها جمالا ذاتياً ينشئه هو فى نفسه إنشاء ويضفيه على الزهرة إضفاء . فلون الزهرة وتكوينها وائتلاف أوراقها على نحو ما من الائتلاف ، كل هذه أشياء يعللها علم النبات تعليله الموضوعى الخالص الذى لا يثير إعجاباً ولا شعوراً بالجمال ، و إنما يحقق معرفه . والفنان هو الذى يجد فى هذا اللون ، وفى هذا التكوين ، وفى هذا النوع من ائتلاف الأوراق ، شيئاً آخر غير التعليل الموضوعى العلمى يخلعه عليها من جهة ، ثم يسترده منها من جهة أخرى فينشئ بينها وبينه صلة هى الحركة الأولى من حركات الفن . وقل مثل ذلك فى الشجرة القائمة على شاطئ النهر ومن حولها الشجيرات والأزهار ، والعشب قد انبسط على الأرض ، والطير قد استقرت على الغصون مترجحة متغنية ، على ما فى هذا المنظر أوالمناظر كلها من اختلاف وائتلاف ؛ فهى فى نفسها ليست شيئاً إذا لم يعرفها الانسان ، وهى فى نفسها إذا عرفها الانسان ليست شيئاً جميلا إذا لم ينظر إليها إلا هذه النظرة الموضوعية التى ترد الظواهر إلى أصولها وأسبابها ، ولكنها تصبح شيئاً ذا خطر ،

تصبح شيئاً يعنى الفن حين ينظر إليها الانسان نظرته الذاتية ، فيجد فيها ما يثير عواطفه المختلفة وأهواءه المتباينة .

فالانسان إذن حريص على أن يزيل عن الكائنات ما يحجبها عن نفسه وقلبه وعقله وضميره . فحركته الفنية الأولى هى التجريد أو التعرية أو إزالة الحجب ورفع الأستار ، وهو إنما يصنع هذا لأنه يريد أو لأنه يشعر بالحاجة الملحة إلى أن يرى نفسه كائناً أساسيا لا يستغنى عنه العالم لتظهر دقائقه وتتجلى أسراره .

الأمر الثانى حاجة الانسان بطبعه إلى ان يشرك نظراءه فيما يجد من حس وشعور ، وما يستكشف من فكرة ورأى . فهو لا يجرد الكائنات لنفسه وحدها ، وإنما يريد أن يحس غيره مثل ما يحس ، وأن يرى غيره مثل ما يرى . وهذه هى المرحلة الثانية من مراحل الفن . فالانسان يكتب لأنه يريد أن يجرد العالم ، ولأنه يريد أن يشرك غيره فى النظر إلى هذا العالم المجرد العريان .

وتجريد الانسان للعالم عمل حر يأتيه الانسان عن إرادة وعمد ، وإشراك النظراء فى النظر إلى هذا العالم المجرد عمل حر أيضاً يأتيه الانسان عن إرادة وعمد ؛ فالانتاج الأدبى ، فى رأى جان بول سارتر ، مظهر من مظاهر الحرية ، أما القارئ فهو يستجيب لدعاء الكاتب ؛ لأن كتابة الكاتب ليست إلا دعاء إنه يحس ويشعر ، ويدعو غيره إلى أن يشاركه فى الحس والشعور .

وهنا يلح جان بول سارتر فيما قدمت الاعتراض عليه من أن الكاتب لا يكتب لنفسه . ذلك أنه حين يكتب لا يرى ما يكتبه إلا شيئاً فشيئاً بمقدار ما تتصور كلماته فى الصحف ؛ فهو لا يتنبأ بآخر ما يكتب ، وإنما يسعى إليه سعياً قد تصوره جملةً قبل أن يكتب أو لم يتصوره ، ولكنه على كل حال يجد لذة هى لذة الكتابة لا لذة القراءة . وهو من أجل هذا يشعر بأن عمله ناقص لا يتم ولا ينتهى إلى غايته إلا إذا أعانه القارئ على إتمامه والوصول به إلى غايته . فاذا استجاب القارى للكاتب تم عمله ، وإذا لم يستجب له ظل هذا العمل ناقصاً مبتوراً .

والقارئ لا يستجيب للكاتب مكرهاً ، وإنما يستجيب له حرًّا مريداً عامداً إلى هذه الاستجابة . والقارئ لا ينشئ عملا مستقلا عن الكاتب ، فلولا الكاتب ما قرأ القارئ ؛ فهو إذن يعاون الكاتب ويتممه بأدق معانى

كلمة المعاونة والاتمام . ذلك أن الكاتب لا يودع الصحف كل ما فى نفسه لأنه لا يستطيع ذلك ولا يريده ، وإنما هو يرسم ما فى نفسه رسما تخطيطيا يرشد به القارئ إلى أن يملأ ما بين الخطوط . فالقارئ إذن ليس قابلا فحسب ، ولكنه قابل من جهة وفاعل من جهة أخرى ، أمره فى ذلك كأمر الكاتب بالضبط ؛ لأن الكاتب قابل حين يتأثر بالعالم الخارجى ، وفاعل حين يعيد إنشاء هذا العالم الخارجى . والقارئ متأثر حين يتلقى الرسم التخطيطى الذى دعاه الكاتب إلى النظر فيه ، وهو منشئ حين يملأ ما بين الخطوط ، ويتم ما بدأ الكاتب من الرسم والانشاء .

وإذن فالأدب حرية كله ، حرية حين ينشئه الكاتب ، وحرية حين يتم القارئ إنشاءه . وهذه الحرية الفاعلة تتخذ الانفعال وسيلة إلى الفعل ، وتتخذ التأثر والخضوع وسيلة إلى الانشاء والتأثير . فالكاتب متأثر ، وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره ، والقارئ متأثر وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره أيضاً .

وأنا معتذر إلى القارئ العربى مما قد يكون فى هذا الكلام من الغموض ، ومن ترديد ألفاظ بعينها أكثر مما ينبغى . ولكنى أحب أن يلاحظ القارئ أنى ألخص له دراسة لجان بول سارتر أديب الوجوديين الفرنسيين ، وصاحب كتاب « الكون والعدم » .

وهناك شئ لم يقف عنده جان بول سارتر ، مع أنه خليق بالعناية ، وهو أن الكاتب واحد ، وأن قراءه كثيرون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً فى الأمزجة والطباع والاستعداد والذوق والثقافة ، وينشأ من ذلك اختلافهم فى تقدير الأشياء والحكم عليها . وهؤلاء القراء يعاصرون الكاتب دائماً ، وقد يعيشون بعده أزماناً تقصر وتطول بمقدار ما يقدر لأثره من البقاء ، وهم يختلفون حين يعاصرونه ، ويختلفون بعد أن يموت . وكلما أتيح للأثر الفنى الخلود عظم حظه من اختلاف القراء بالتأثر والحكم والتقدير .

وإذن فالكاتب لا ينشئ أثراً واحداً حين يؤلف كتاباً واحداً وإنما ينشئ آثاراً لا تحصى ، أو قل آثاراً بمقدار ما يتاح له من القراء . وواضح جدا أن قصة من قصص شكسبير تترك فى نفوس القراء آثاراً تتفق فى جملتها ولكنها تختلف فى تفصيلها اختلافاً لا سبيل إلى ضبطه . وواضح جدا أن هذا التمثال اليونانى قد ترك فى نفوس اليونان أنفسهم آثاراً متباينة ، وترك فى نفوس

المحدثين آثاراً تختلف باختلاف القرون . فالكاتب إذن ينشئ ولكنه يدعو الأجيال المختلفة إلى الانشاء . ومن هنا تظهر قيمة الالتزام الذى يدعو إليه جان بول سارتر . فيجب على الكاتب أن يقدر عمله ونتائجه ، وأن يحتمل تبعات هذا العمل وهذه النتائج . والكاتب مدفوع إلى الكتابة بحريته التى تدفعه إلى شئ من الكرم والجود والتنزه عن الأثرة والبخل . والقارئ مدفوع إلى القراءة لحاجته إلى أن يتلقى أولاً و إلى أن يعطى ثانياً . و إذن فالتبعة الأدبية ليست مقصورة على الكاتب وحده ، ولكنها شركة بينه وبين قرائه . وهنا يصل جان بول سارتر إلى نتيجة لا تخلو من روعة ، وهى أن الأدب مادام مصدره الحرية والإيثار واحتمال التبعات ، فلا يمكن أن يكون شرا ولا أن يدعو إلى الشر مهما تكن مادته وموضوعه . ذلك أن الحرية خير ، والايثار خير وما يصدر عن الخير يجب أن يكون خيراً آخر الأمر . فما يسميه الغربيون أدباً أسود لاحظ له فى حقيقة الأمر من السواد ؛ لأن منتج هذا الأدب إنما رأى شراً فأراد إصلاحه ، وقارئ هذا الأدب إنما رأى ابتداء الاصلاح فأراد إتمامه .

ونتيجة أخرى لا تخلو من روعة يصل إليها جان بول سارتر ، وهو أن الأدب حر فلا يمكن أن يتجه إلى العبيد . وآية ذلك أن القارئ لا يقرأ إلا عن حرية . و إذا ذكرنا القارئ الحر فانما نريد القارئ بأدق معانى هذه الكلمة ، القارئ الذى يتعمد القراءة ويتعمد الفهم ، ويتعمد إذاعة ماقرأ وما فهم . ومن هنا يقول جان بول سارتر إن الديمقراطية هى أشد النظم ملاءمة للأدب .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً ، ولكن بشرط أن نتوسع فى معنى الديمقراطية شيئاً ما ، وأن نتجاوز بها حدودها السياسية التى ترسم لها فى كتب السياسة والقانون . فقد كان عصر بيركليس ديمقراطيا ، ولكن عصر أغسطس والرشيد ولويس الرابع عشر لم تكن عصوراً ديمقراطية وقد ازدهر فيها الأدب ازدهاراً عظيما . وربما كانت كلمة الحرية هنا أشد ملاءمة من كلمة الديمقراطية . فهؤلاء الملوك المتسلطون المستبدون كانوا يتسلطون ويستبدون فى حدود لا يكادون يتجاوزونها ، وكانوا يتركون للعقول والقلوب والألسنة حرية لعلها لا تقل عما تستمع به الآن . والفكرة التى يرمى إليها جان بول سارتر هى أن الأدب والدكتاتورية لا يتفقان ؛ لأن الدكتاتورية لا تعرف حدوداً للتسلط والاستبداد ،

وإنما تتدخل فى كل شئ ، وتفرض نفسها على كل شئ، وتريد أن تنظم كل شئ ، فتهدر بذلك حرية الأفراد والجماعات إهداراً .

وبعد فكل هذه الخصائص التى صورها جان بول سارتر للإنتاج الأدبى والتى يبين لنا بها لماذا نكتب ، ليست مقصورة على النثر من دون الشعر ، وليست مقصورة على الأدب من دون الفنون الرفيعة كلها ، وإنما هى شائعة بين هذه الفنون جميعاً . فاذا كان من شأنها أن تفرض على الكتاب أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، فمن شأنها أن تفرض على الشعراء والموسيقيين والمصورين والمثالين وغيرهم من أصحاب الفن الرفيع كائناً مايكون الفن ، أن يلتزموا ويحتملوا التبعات .

وربما كان وجه الحق فى هذه القضية هو أن لكل شئ موضعه ، وأن كل صاحب فن ملتزم يحتمل تبعاته أمام الفن أولا ، وأمام الذوق العام ثانياً ، ثم أمام طوائف بعينها من الناس إذا كان من شأن موضوعه أن يلزمه ويحمله التبعات أمام هذه الطوائف من الناس . فالأديب الذى يعرض للسياسة ملتزم أمام فنه الأدبى وأمام مذهبه السياسى . وقل مثل ذلك فى الأديب الذى يعرض لشؤون الاجتماع . ولم يحظر أحد على أديب ولا على صاحب فن أن يعالج من الموضوعات مالا يلزمه إلا أمام الفن والذوق وحدهما .

وقد أعود إلى هذا الموضوع بعد أن أتم قراءة ماكتب جان بول سارتر عن القسم الثالث من دراسته ، وهو : « لمن نكتب ؟ »

طه حسين